الخطبة التاسعة عشرة

ربيعة بن كعب رضي الله عنه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله عدد خلقه، الحمد لله مداد كلماته، الحمد لله زِنَةَ عرشه، الحمد لله رضا نفسه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة ونصح الأمة وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وبعد:

دأب ربيعة بن كعب في العبادة ليحظى بمرافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة، كما حظي بخدمته وصحبته في الدنيا.

قال ربيعة بن كعبٍ: كنت فتىً حديث السنِّ لما أشرقت نفسي بنور الإيمان، وامتلأ فؤادي بمعاني الإسلام، ولمَّا اكتحلت عيناي بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَّل مرَّةٍ أحببته حبـًا ملك عليَّ كلَّ جارحةٍ من جوارحي، وأُولعت به ولعـًا صرفني عن كل ما عداه.

فقلت في نفسي ذات يوم: ويحك يا ربيعة، لم لا تجرِّد نفسك لخدمة رسول الله ﷺ؟ اعرض نفسك عليه فإن رضي بك سعدت بقربه وفزت بحبِّه، وحظيت بِخَيْرَي الدنيا والآخرة، ثم ما لبثت أن عرضت نفسي على رسول الله ﷺ، ورجوته أن يقبلني في خدمته، فلم يخيِّب رجائي، ورضي بي أن أكون خادمـًا له.

فصرت منذ ذلك اليوم ألزم للنبيِّ الكريم ﷺ من ظلِّه، أسير معه أينما سار،

وأدور في فلكه كيفما دار، فما رمى بطرفه مرَّة نحوي إلا مثلت واقفاً بين يديه، وما تَشَوَّف لحاجةٍ من حاجاته إلا وجدني مُسرعاً في قضائها، وكنت أخدمه نهاره كلَّه، فإذا انقضى النهار وصلَّى العشاء الأخيرة وأوى إلى بيته؛ أهمُّ بالانصراف، لكني ما ألبث أن أقول في نفسي: إلى أين تمضي يا ربيعة؟!

فلعلَّها تعرض لرسول الله ﷺ حاجة في الليل، فأجلس على بابه ولا أتحوَّل عن عتبة بيته. وقد كان رسول الله ﷺ يقطع ليله قائماً يُصلِّي؛ فربَّما سمعته يقرأ بفاتحة الكتاب؛ فما يزال يكرِّرها هزيعاً من الليل، حتى أَمَلَّ فأتركه، أو تغلبني عيناي فأنام، وربَّما سمعته يقول: (سمع الله لمن حمده) فما يزال يردِّدها زمناً أطول من ترديده لفاتحة الكتاب.

وقد كان من عادة رسول الله ﷺ أنَّه ما صنع له أحد معروفاً إلا أحبَّ أن يجازيه عليه بما هو أجلُّ منه، وقد أحبَّ أن يجازيني على خدمتي له، فأقبل عليَّ ذات يوم وقال: «يا ربيعة بن كعب»، فقلت: لبَّيك يا رسول الله وسعديك.

فقال: «سَلْني شيئاً أعطِه لك»، فروَّيت قليلاً ثم قلت: أمهلني يا رسول الله لأنظر فيما أطلبه منك، ثم أُعْلمُك، فقال: «لا بأس عليك».

وكنت يومئذٍ شاباً فقيراً لا أهل لي ولا مال ولا سكن، وإنما كنت آوي إلى صُفَّة المسجد مع أمثالي من فقراء المسلمين، وكان الناس يدعوننا: (بضيوف الإسلام)، فإذا أتى أحدٌ من المسلمين بصدقةٍ إلى رسول الله ﷺ بعث بها كلّها إلينا، وإذا أهدى له أحدٌ هديةً أخذ منها شيئاً، وجعل باقيها لنا.

فحدَّثتني نفسي أن أطلب من رسول الله شيئاً من خير الدنيا، أغتني به من فقرٍ، وأغدو كالآخرين فأصبح ذا مالٍ وزوجٍ وولدٍ. لكني ما لبثت أن قلت: تبّاً لك يا ربيعة بن كعب، إنَّ الدنيا زائلةٌ فانيةٌ، وإنَّ لك فيها رزقاً كفله الله عزَّ وجلَّ، فلا بدَّ أن يأتيك، والرسول صلى الله عليه وسلم في منزلةٍ عند ربِّه لا يُردُّ له معها طلبٌ،

فاطلب منه أن يسأل الله لك من فضل الآخرة! فطابت نفسي لذلك، واستراحت له.

ثم جئت إلى رسول الله فقال: «ما تقول يا ربيعة؟!»، فقلت: يا رسول الله أسألك أن تدعو لي الله تعالى أن يجعلني رفيقًا لك في الجنة، فقال: «من أوصاك بذلك؟»، فقلت: لا والله ما أوصاني به أحدٌ، ولكنك حين قلت لي: سلني أعطك حدَّثتني نفسي أن أسألك شيئًا من خير الدنيا ثم ما لبثت أن هُديتُ إلى إيثار الباقية على الفانية، فسألتك أن تدعو الله لي بأن أكون رفيقك في الجنة، فَصَمَتَ رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «أَوَغَيْرَ ذلك يا ربيعة؟»، فقلت: كلا يا رسول الله فما أعْدِلُ بما سألتك شيئًا، فقال: «إذاً أعنِّي على نفسك بكثرة السجود».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من جعل الهموم همًا واحداً، كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك» الحاكم في مستدركه.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه، وشتت الله عليه ضيعته، ولا يأته منها إلا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه في قلبه، ويكف عليه ضيعته، وتأتِه (أي: الدنيا) وهي راغمة» كنز العمال (6274).

ربيعة بن كعب رضي الله عنه فتى لا يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة.

أولاً - امتلأ قلبه حبًا برسول الله ﷺ، ثانيًا - أراد المرافقة ليحظى بخيري الدنيا والآخرة، ثالثًا - كان ينام على باب رسول الله ﷺ ليتعلم ويسمع ما يقوله رسول الله ﷺ أو لعله يريد شيئًا، رابعًا - كان متريثًا يفكر ويُعْمِلُ عَقْلَهُ، خامسًا - محاكمته العقلية الرائعة وكيف أنه آثر الآخرة على الدنيا، وآثر جنة عرضها السموات والأرض على متاع الدنيا الفاني.

وسؤالي لنفسي الآن: هل أنا العاقل البالغ أُفَضِّلُ الآخرة على الدنيا؟ هل عندي

هذا الحب العميق لله ولرسوله ولدينه؟ هل عندي هذه المحاكمة العقلية التي أوازن بها بين مرضاة الله وبين مرضاة شهواتي وغرائزي؟ ثم أن يكون عندي التقوى والورع والوعي والالتزام لأفضل مرضاة الله سبحانه وتعالى على ما سواها، ثم هل أنا آخذ بوصية رسول الله ﷺ التي قالها لربيعة: «أعني على نفسك بكثرة السجود» هل أُكثر من النوافل؟ وخاصة من نوافل الصلاة، أو نوافل الصيام أو الصدقات؟ وقد ورد في الحديث القدسي: عن ميمونة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: ما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء فرائضي وإنه ليتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت رجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، إن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته» الطبراني – الحلية لأبي نعيم – حم.

ربيعة رضي الله عنه أحب رسول الله ﷺ وعرف أنه بالتزامه برسول الله ﷺ يحظى بخيري الدنيا والآخرة، أما أنا فما دوري الآن؟ وما هو الذي باستطاعتي فعله؟! أنا أستطيع أن ألتزم بأقوال رسول الله ﷺ وأفعاله، ألتزم بالسنة وأدور معها حيث دارت، وأصلي على رسول الله ﷺ دائماً وأُذكر به وبها (أي: الصلاة عليه)، وأنشر سنته وأحارب البدعة، وأحاول أن أكون من إخوانه، لأني لا يمكن أن أكون من أصحابه. فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني» حم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حباً، ناس يكونون من بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله» مسلم.

ثم انظر إلى كرم رسول الله ﷺ ومحبته ورقته مع أصحابه ومواساته لهم: «سلني يا ربيعة شيئاً أُعطه لك»، كم هو لطيف ورقيق ومحب! هذا غلام يخدمه فقير لا أهل له ولا مال ولا مسكن ينام مع الفقراء من أهل الصفة في المسجد. أين هو من رسول الله ﷺ شرفاً ومكانة وعزة رسولاً حاكماً –سيد الخلق– حبيب

الرحمن – مع كل هذا: سلني يا ربيعة شيئًا أعطه لك. لا يوجد جواب ولا يوجد كلام إلا أن نقول: إنها النبوة صلى الله عليه وسلم.

إنه من العجب العجاب، الفهم العميق والدقيق لهذا الفتى الصحابي الجليل ربيعة بن كعب! إنه فقير لا مال ولا أهل ولا سكن! وعادة الجائع والفقير إن سنحت له فرصة يطلب المال والجاه والمأوى والشبع، لكن ربيعة قال: «تبًا لك يا ربيعة بن كعب، إن الدنيا زائلة فانية، وإن لك فيها رزقًا كَفلَهُ الله عز وجل فلا بد أن يأتيك».

الإيمان بالقدر والإيمان بما قسمه الله تعالى، والثقة بأن ما هو لك سوف يأتيك ورزقك لا يأخذه غيرك، وأن الله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً هو القاسم وهو المقدر وهو الرازق، وثقته بحديث رسول الله ﷺ فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أنَّ نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته» صحيح الجامع (2025) – الحلية لأبي نعيم – الطبراني – ك – البيهقي.

كثير من الناس يعرفون هذا الحديث وأمثاله ويقولون: إن الرزق من عند الله تعالى، ولكن القول غير الإيمان، لو كنا نؤمن حقًا فلماذا نغش بعضنا؟ ولماذا نكذب في تعاملاتنا؟ ولماذا يأكل القوي منا الضعيف؟ لماذا نلعب القمار؟ لماذا نسرق؟ لماذا نلف وندور؟ لماذا وألف لماذا كل يوم... لأننا لا نؤمن، ولأننا لا نثق، ولأن المحسوس والملموس هو الذي نؤمن به، والغيب وما وعدنا الله به، فهذا نحن في شك فيه ولو قالت ألسنتنا وأفواهنا بأننا مؤمنين. اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم